مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

النثر الفني الجاهلي في ميزان النّقد

الدكتور: أَحْمَدْ سَالِمْ الدِّيبْ
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

قبل الحديث عن النثر الفني يجب أن نطرح سؤالاً عن ماهية ذلك النثر يكون في الإجابة عليه تحديد له يميزه عن فنون القول وضروبه، فنقول: ما المراد بالنثر وربما التبست في أذهان بعض الدارسين بالنثر الذي نريده كما وقع ذلك بين (جوردان) (Jordan) وأستاذه حين سأله قائلاً: إني أريد أن ألقي إليك سراً، فقال له أستاذه؛ هات. فقال: إني أريد أن أكتب بطاقة لسيدة جميلة، وأريد أن أستعين بك عليها، فقال له أستاذه: لك ذلك، هل تريد شعراً؟ فيقول كلا هل تريد نثراً؟ فيقول كلا فيقول له أستاذه: ومع ذلك فلا بد أن تختار إما شعراً وإما نثراً، لأن الكلام لا يمكن أن يكون إلا شعراً أو نثراً، فيقول له جوردان: وإذن فعندما أطلب إلى خادمي أن يناولني قلنسوتي أو حذائي فأنا أقول النثر؟ فيقول له الأستاذ: نعم، فيقول: يا للعجب، إذاً فأنا أتكلم النثر منذ أربعين سنة ولا أدري[1].

فهذا النوع من الفهم للنثر الفني غير صحيح لما فيه من الخلط بين ضروب

(1) من حديث الشعر والنثر ص 21/ طه حسين.

النثر، وربما كان من نافلة القول أيضاً أن نقسم الكلام أولاً إلى موزون مقفى، وإلى كلام ليس بموزون ولا مقفى فالأول الشعر والثاني النثر، والنثر منه العادي، وهو ذلك اللون من الكلام الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم اليومية، ويتبادلونه فيما بينهم عند قضاء حاجاتهم الحياتية العادية المألوفة، وهذا لا يتكلف فيه صاحبه اختيار لفظ ولا انتقاء معنى، ولا معاناة صياغة، وإنما يلقى مجرداً عن تلك العوامل الجمالية والفنية، وكثيراً ما يكون باللهجة العامية.

ومنه العلمي: وهذا اللون من النثر يستخدم في البحث العلمي وتحقيق مسائله وقضاياه بعبارة دقيقة محددة ذات مدلول علمي واحد صريح بعيد عن الصناعة والعاطفة والمجاز.

أما النوع الثالث من النثر فهو النثر الفني، وهو ما اعتمد على انتقاء اللفظ واختيار العبارة، وحسن السبك وجمال الصياغة، وروعة الأسلوب، وجلال المعنى، وبهذه العوامل يكون أثره في النفوس والعواطف قوياً مؤثراً، وهذا النوع من النثر البليغ هو الذي فسر به الجاحظ مقصد العتابي من كلامه. فقال: والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان[2] وهذا النوع الأخير هو المراد بين قسميه في هذه الدراسة. وبعد هذه الإلمامة الموجزة بضروب النثر يرد علينا سؤال هو: هل كان لعرب العصر الجاهلي نثر فني؟.

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرض لآراء بعض الدارسين لأدب ما قبل البعثة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، حيث نجدهم قد اختلفوا في الإجابة ما بين ناف لوجود مثل ذلك النثر، وبين مثبت له.

وممن نفوا وجوده المستشرق الفرنسي (المسيو مرسيه) الذي ذهب إلى القول: بأنه لم يكن للعرب قبل مجيء الإسلام وجود أدبي في مجال النثر الفني، ذلك لأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية، والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لأنه

(2) ص 161 ج 1 البيان والتبيين.

لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال[3]، والواقع أن هذا الرأي الذي أعلنه (مرسيه) في محاضراته التي كان يلقيها على طلاب (مدرسة اللغات الشرقية) بباريس بعيد كل البعد عن الواقع والصدق لأنه قائم على خطأ في تصور طبيعة حياة العرب، لا سيما الجانب العقلي والحضاري منها حين ذهب إلى تفسير حياتهم بالسذاجة والأولية والجهل حتى بأخص خصائصهم، وهي القدرة على البيان، ناسياً أو متناسياً أن العرب من أقدر الأمم على الفصاحة وفن القول والارتجال وحضور البديهة[4]، والبيان معجزتهم وحجتهم أيضاً وهما يقومان على بلاغة المنطق والعقل المتمثلين في القرآن الكريم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[5] ولا معنى للتبيين إلا إذا كانوا على حال تؤهلهم لفهم ذلك المستوى من البيان القرآني الرفيع.

وقد نسي أو تناسى أيضاً أن ما ورثناه عن عرب العصر الجاهلي من فصيح ألفاظ اللغة وصحيحها سواء ما استعملوه منها في الماديات أو ما استعملوه في المعاني هو مظهر من مظاهر الحياة العقلية عندهم، لأن لغة كل أمة في كل عصر تدل على مدى تفكيرها ورجاحة عقلها. بل وثقافتها وحضارتها كذلك، فإذا أمكننا القيام بحصر معجم ألفاظ لغة أمة ما لمعرفة ما استعملته منها فإننا سنعرف عن طريق ذلك الأشياء التي كانت قد عرفتها بالفعل والأشياء التي لم تعرفها. ومما لا مجال فيه لشك أن الألفاظ في كل لغة لم توضع دفعة واحدة، وإنما يوضع منها على قدر الحاجة فكلما ظهرت أشياء جديدة وضعت لها ألفاظ جديدة، وهذا يضع في أيدينا دليلاً قوياً على أن اللغة إنما تنمو وترتقي تبعاً لارتقاء الأمة وتطورها العقلي والثقافي، ولغة العرب من أثرى لغات العالم وأغناها بالألفاظ، فقد وسعت كتاب الله لفظاً وغاية، ومن ارتاب فلينظر في أي معجم من معاجمها، إذن فهي دليل قوي على قدرة ذلك العقل المبدع في اللغة والترسل لدى عرب الجزيرة، وبالتالي فهي حجة دامغة لكشف الزيف الذي ذهب إليه ذلك المستشرق، وهي لغة حضارية تدل على أن أصحابها كانوا كذلك.

---

(3) النثر الفني ص 33 ج 1. زكي مبارك.

(4) انظر ص 98 وما بعدها ج 1. البيان والتبيين للجاحظ.

(5) جزء من آية 4 سورة ابراهيم.

في العصر الحديث نقول: إن الطب تقدم فاكتشف أنواعاً من الأمراض، ولا بد أن يضع لها الأطباء أسماء مناسبة، وأن يقترحوا لها دواء أيضاً، وهذا دليل على تحضر إنسان هذا العصر، وعليه خذ مثلاً ما اكتشفه العرب منذ ذلك التاريخ من الأمراض ووضعوا لها الألفاظ المناسبة للدلالة عليها، قالوا: فإذا كان الوجع في الرأس فهو الصّداع، فإذا كان في شق الرأس فهو شقيقة، فإذا كان في العين فهو عائر أو رمد ـ فإذا كان في اللسان فهو قلاع، فإذا كان في الحلق فهو عذرة وذبحة، فإذا كان في العنق من قلق وساد أو غيره فهو لبن واجل، فهو قداد، فإذا كان في المفاصل واليدين فهو رثية، فإذا كان في الجسد كله فهو رداع... فإذا كان في الظهر فهو خزرة.. فإذا كان في المثانة فهو حصاة، وهي حجر يتولد فيها من خلط غليظ يستحجر)[6]. وهذا مثل آخر من ضروب الثياب عرفتها العرب، قالوا: السحل من القطن، الحرير من الأبريسم، الخنيف ما غلظ من الكتان، والشّرب ما رق منه، الرّدن ما غلظ من الخز، والسّكب ما رق منه، واللّبادة من اللّبود، ... الغلالة ثوب رقيق يلبس تحت ثوب صفيق، المبذلة ثوب يبتذله الرجل في منزله، المبدع ثوب يجعل وقاية لغيره، السّدوس والسّاج الطّيلسان، المنامة والقرطف والقطيفة ما يتدثّر به من ثياب النوم، الشّعار ما يلي الجسد، الدّثار ما يلي الشعار الرّدن، الخز، السرّق، الحرير الرّقم والعقم والعقل: ضروب من الوشي. الريطة ملاءة ليست بلفقين إنما هو نسج واحد.. [7] ولعل فيما أوردناه دليلاً صادقاً على أن هذه اللغة لم تكن لغة قوم يعيشون عيشة أولية وبعقل متخلف عاجز عن إدراك معنى الأشياء كما يدعي (مرسيه) ومن على شاكلته، وإنما هي لغة أنشأتها عقول رصينة، ومحصتها تجارب وحضارات عربية عريقة نحيل القارىء الكريم إلى مصادرها في كتب التاريخ ومعاجم البلدان وغيرها[8] إن شاء ولكي يتبين القارىء الحق من الباطل الذي ذهب إليه (مرسيه) ولاستكمال الصورة والدليل على ما نراه من أن العرب أمة ذات حضارة عريقة وأدب أصيل وعقل حصيف وفكر ثاقب ورأي صائب، وتلك آثارهم تدل عليهم، ومن هذه الآثار ما

---

(6) ص 193 /194 فقه اللغة وسر العربية. للثعالبي.

(7) ص 359 /360 المرجع السابق.

(8) ينظر على سبيل المثال: أثر العرب في الحضارة الأوروبية للعقاد، (من روائع حضارتنا) مصطفى السباعي.

حفلت به لغتهم من المعارف والعلوم والثقافات والآداب كما أسلفنا وكما يتضح فيما تذكره بعض معارفهم الإنسانية الواسعة، من هذه المعارف ما دلّت عليه لغة العرب للعصر الجاهلي في علم الاجتماع والتمدن، مثل قولهم في جماعات الناس: نفر، ورهط، وملّة، وشرذمة، ثم قبيل، وعصبة، وطائفة، وفي القبيلة وترتيبها: عن ابن الكلبي عن أبيه؛ الشعب ثم القبيلة، ثم العمارة ثم البطن، ثم الفخد، وعن غيره: الشعب، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العشيرة ثم الذرية، ثم العترة، ثم الأسرة. . . وقالوا في ترتيب العساكر: الجريدة، ثم السّريّة، ثم الكتيبة، ثم الجيش، والفيلق، والجحفل، ثم الخميس، والعسكر يجمعها[9] وفي لغة العرب ما يدل على تمدنهم ومعرفتهم بالعمران مثل: المحلة، والموسم، والمدرس، والمحفل، والمأتم، والنادي والندوة، والمصطبة، والمجلس، والمربع، وفي الأبنية وأسماء القصور: أطم، ومحرد، وصرح، وكعبة، وفي بيوت العبادة: مسجد، وكنيسة، وبيعة، وصومعة، وبيت النار، وفي لغة العرب ألفاظ لأسماء الورق والقلم والكتب، فللورق: الصحيفة والمجلة، والقرطاس، والطرس، والرف. وللكتب: القمطر، والمدرس، والزبور، والرقيم والسفر، والضّبار، وغيرها، ثم للقلم أسماء منها: اليراع، الأسل، والأنبوبة، والملقاط ولهم ألفاظ في البحار والسفن والتجارة وغيرها تدل على معرفة بالمدينة وطبيعة نظمها، وإلا فمن أين لهم كل هذه المعارف إذا لم يعرفوا الكثير عن الحواضر والمدن ويتصلوا بها.

ولعل فيما أوردناه الحجة القوية الواضحة على أن العرب لم يكونوا أقل من غيرهم من الأمم التي من حولهم إن لم يفضلوهم حضارة وأدباً وحكمة وبياناً، وأنهم ليسوا أمة بدائية تعيش عيشة أولية كما يزعم هذا البعض الذي يخبط خبط عشواء وهذا يذكرني ببعض تلك الأوهام والأكاذيب التي أوردها المرحوم شكيب أرسلان، كان يقوم بنشرها جماعة من المستشرقين مثل مرغليوت وريتان منها قولهم في فصل عن الحزب الراديكالي: (يبقى الحزب تحت تجاذب قوتين أشبه بقبر محمد ساكن في الفضاء) وفي حديث بعضهم عن الحجاج قال؛ الذين يذهبون إلى مكة لزيارة قبر

(9) فقه اللغة للثعالبي ص326، وانظر معاني تلك الجموع هناك.

محمد، ومن أمثالهم: قال محمد للجبل تقدم فلما لم يتقدم تقدم إليه محمد[10] وأنا لا أريد أن أعلق على هذه الأقوال لتفاهتها ولأنها تدل على الجهل المطبق والغباء المستحكم في أصحابها[11].

ومع ذلك فإني أورد ما قاله الكاتب نفسه عن جهل الأوروبيين بعلوم الشرقيين قال: (إننا لا نطمع في إيراد أمثال على هذه القضية قضية جهل الأوروبيين بأمور الشرقيين، لأن الإنسان لا يطمع أن يعد رمال الدهناء ولا حصى البطحاء ولا نجوم السماء[12] ويقول عن رنان: فإذا كان رنان وهو من العبقريين الأفذاذ الذين لم تنجب مثلهم أوروبا إلا في الأعصر والقرون وممن درسوا علوم الشرق أكثر من كل أوروبي آخر يخلط هذا الخلط ويخبص هذا الخبص فما ظنك بمن ليس بعبقري، وليس بفيلسوف، ومن ليس نسيج وحده في قومه، ومن ليس بواقف حق الوقوف على علوم الشرقيين[13]؟ في الفترة التي كان فيها مرسيه يشيع تلك الضلالة حول نفي الأدب الجاهلي أي حوالى 1926 م كان مرجليوت يروج لهذه الفكرة نفسها حين نشر بحثاً مفصلاً في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليه لسنة 1925 م. في هذه الحقبة التاريخية تلقف طه حسين رحمه الله تلك الفكرة وتبناها بعد أن صادفت هوى في قلبه فتمكنت، فكان من دعاتها العاملين على نشرها في مصر بعد عودته إليها من خلال محاضراته بالجامعة المصرية، وفيما أصدرت من البحوث والكتب مثل (المجمل) و(الأدب الجاهلي) و(من حديث الشعر والنثر) وغيرها.

وكان خلاصة ما قاله طه حسين في النثر الجاهلي: والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال ـ مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه ـ أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني)[14].

---

(10) ص يا ـ مقدمة النقد التحليلي لكتاب (في الأدب الجاهلي) محمد أحمد الغمراوي.
(11) انظر نقد الكتاب نفسه لهذه الجمل.
(12) الصفحة نفسها من المرجع السابق.
(13) ص (ى) منه أيضاً.
(14) من حديث الشعر والنثر ص 24 /25 ألقيت هذه المحاضرة بقاعة الجمعية الجغرافية بتاريخ 20 ديسمبر 1930 م، ثم نشرت في الكتاب.

والواقع أن موقف طه حسين من الأدب الجاهلي ـ شعره ونثره ـ معروف ومشهور، فهو يرفضه كله، ولا يستثني من الشعر إلا بعض شعر قبيلة مضر تحت مقاييس، هي بدون شك جائرة، أما النثر الجاهلي فهو يرده جملة وتفصيلاً، نجد هذا في قوله: (ذلك لأننا مضطرون إلى أن نقف من النثر الجاهلي نفس الموقف الذي وقفناه من الشعر الجاهلي، فنقسم العرب إلى قسمين عرب الشمال وعرب الجنوب، ونرفض من غير تردد كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر قبل الإسلام، ذلك لأن النثر الذي يضاف إليهم كالشعر قد روي بلغة قريش التي لم يكن لهم بها علم، فيجب ألا يكون صحيحاً. ويقول عن أدب الشمال: (أما عرب الشمال فلا بد من أن نقف من نثرهم موقفنا من شعرهم، ولعلك تذكر أنا نرفض أكثر الشعر الذي أضيف إلى ربيعة ونحتاط أشد الاحتياط من سائره الذي نشأ في عصر متأخر جداً كشعر الأعشى، فنحن نقف هذا الموقف نفسه مما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة، نرفضه ولا نكاد نقبل منه شيئاً. فلم يبق إلا المضريون، وقد عرفت أنا نلتمس المقاييس التي نتبين بها صحة الشعر المضري في الجاهلية أو بطلانه)[15].

وحين يتحدث طه حسين عن الخطب والقصص والسجع والحكم والوصايا يقرر رفضها من غير تردد كذلك، فيقول: ستقول وهذه الخطب التي تضاف إلى الوفود العرب عند كسرى، وهذا السجع الذي يضاف إلى الكهان، وهذا الكلام الذي يضاف إلى قس بن ساعدة، وهذه الحكم والوصايا التي تضاف إلى حكمائهم وعظمائهم، ماذا تصنع بها؟ فنجيب: نرفضها من غير تردد)[16].

أما الأمثال في نظره فهي أدب شعبي مضطرب عابث ليس من النثر في شيء حيث يبدأه بطرح سؤال تهكمي كعادته، قائلاً: ستقول والأمثال؟ وأنا أرى معك أن طائفة غير قليلة من الأمثال يجب أن تكون جاهلية، ولكن تحقيق هذه الأمثال الجاهلية التي لم تستحدث في الإسلام ليس بالشيء اليسير، والأمثال بطبيعتها أدب شعبي مضطرب متطور، يصح أن يؤخذ مقياساً لدرس اللغة، ومقياساً لدرس الجملة

---

(15) ص 327 /328 في الأدب الجاهلي.
(16) المرجع السابق ص 328.

القصيرة كيف تتكون، ومقياساً بنوع خاص لعبث الشعوب بالألفاظ والمعاني، ولكن هذا كله شيء والنثر الفني شيء آخر[17].

والملاحظ أن طه حسين فيما ذهب إليه من رفض النثر الجاهلي متأثر إلى حد بعيد بمن سبقوه من المستشرقين[18] حيث نفي وجود النثر الفني للعصر الجاهلي، ثم رفض كل أنواع النثر الأدبي التي وصلت إلينا منسوبة إلى ذلك العصر.

والواقع أن أصحاب هذا الرأي جميعاً لم يكونوا على حق أبداً، ولعل ما أوحت به إليهم حياة العرب آنذاك قد خدعهم في تفسيرها وتعليلها بالأولية والسذاجة التي لا تسمح لهم بمثل ذلك النثر الذي هو لغة العقل، وبنوا على ذلك آراء باطلة، واستنباطات مغرضة اتسمت بالخطأ والفساد، وهو ما عناه زكي مبارك بقوله: (وهناك رأي مثقل بأوزار الخطأ والضلال)[19] وقال غيره في ذلك المذهب أيضاً فذهبوا إلى هذا الرأي واهمين ودافعوا عنه مسرفين[20].

ويقف فريق آخر على الطرف الثاني من هذا المذهب ليفند ما ذهب إليه طه حسين وأمثاله وليثبت بالأدلة وجود النثر الفني لعصر ما قبل الإسلام وفي مقدمة هذا الفريق زكي مبارك الذي انتهى إلى قوله: (وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودونها[21] القرآن) ويذهب زكي مبارك في التماس الأدلة والشواهد على وجود ذلك النثر الأدبي فيرى أن القرآن أقوى دليل وخير شاهد على ذلك، فيقول: (فليعلم القارىء أن لدينا شاهداً من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه، وهو القرآن) ويرى أنه لا داعي للدهشة من اعتباره

---

(17) المرجع السابق ص 331.

(18) انظر ملخص آراء مرجليوت والرد عليها في كتاب ـ العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص 166 وما بعدها وكتاب مصادر الشعر الجاهلي ص 352 وما بعدها ـ لناصر الدين الأسد.

(19) ص 33 النثر الفني.

(29) ص 173 الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ـ عبد الحميد المسلوت.

(21) النثر الفني ص 34.

القرآن كذلك، قائلاً: ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن أثراً جاهلياً، فإنه من صور العصر الجاهلي إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره، وهو. . . . يعطينا صورة للنثر الجاهلي. ولو لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية في العصر الجاهلي[22].

غير أن زكي مبارك وقف عند اعتبار القرآن أثراً جاهلياً يعطينا صورة مماثلة للنثر الجاهلي، وحكم بضياع ذلك النثر جميعه، وأن ما ينسب إليهم مما بين أيدينا من نصوص النثر الفني كالخطب والوصايا والقصص وغيرها ليست بصحيحة النسبة وإنما هي ضرب من المحاكاة المصطنعة عليهم، وعليه فهي لا تصور حياتهم ولا تمثل واقعهم تماماً[23].

أما الكاتب الألماني المشهور بروكلمان فهو يقول: وأخيراً يمكن القول بأن فن التأثير بالكلام المتخير الحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم قد ازدهر عند عرب الجاهلية، وأن هذا الفن قد اشتمل أيضاً على بذور النمو الأدبي المتأخر[24].

يؤخذ من عبارة بروكلمان هذه أنه لا ينكر وجود نثر فني لعرب الجاهلية بل يذهب إلى أنه بلغ غاية الازدهار والتأثير في الأدب فيما بعد، كما يستبعد أنيس المقدسي أن تبلغ قريش مبلغاً حسناً في الرقي والتقدم ولا يكون لها نثر مناسب لما هي عليه حيث يقول: والنثر المطلق قديم في الأدب العربي نراه في عهد الرسول، ويحملنا الاستنتاج العقلي على أنه كان في الجاهلية أيضاً إذ لا يعقل أن تبلغ قريش مثلاً في جاهليتها ما بلغته من التقدم. . . ولا يكون لها من النثر غير الأسجاع التي تعبر عن العواطف الدينية والنظرات الأخلاقية[25].

ومما يجب الأخذ به في تأييد وجود النثر الفني عند العرب في العصر الجاهلي

---

(22) المرجع نفسه ص 38.
(23) انظر ص 39 وما بعدها المرجع السابق.
(24) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ص 129 ج 1.
(25) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ـ ص 20 أنيس المقدسي.

وجود مثله عند غيرهم من الفرس والروم واليونان في العصر نفسه وربما كان قبل ذلك بقرون وعليه أليس من الإنصاف والعدل بأن نقول بوجود النثر الفني للعرب مثلما كان لغيرهم ممن جاورهم من العجم؟ ولو عن طريق الاكتساب والتأثر مثلاً، لا سيما أنه كانت للعرب صلات مباشرة مع الفرس عن طريق الحيرة، ومع الروم في الشام، وهو ما يؤكد المماثلة في هذا الجانب على الأقل، علماً بأن العرب كانوا من أقدر الأمم على فن القول وصياغة البيان، والقرآن خير دليل على ذلك حيث نزل بلسانهم وعلى نمط أساليبهم مخاطباً إياهم بذلك، والقول بغير هذا ضرب من الجحود لأصالة البيان في سليقة الأمة العربية بدون شك.

ونرى أن هذا النثر الذي نثبته للعرب مثلما هو ثابت لغيرهم من أمم العالم في ذلك التاريخ القديم يتمثل في الجوانب الآتية:

1 ـ الوصايا الدينية والرسائل الأخلاقية التي يدعو أصحابها فيها إلى الفضائل.

2 ـ وفي الكتب الأدبية التي كانت تتضمن الكثير من حكمهم وأمثالهم وتجاربهم في الحياة.

3 ـ ويتمثل هذا النثر كذلك في خطب العرب في مناسباتهم الدينية والقومية والسياسية في شكل محافل ووفادات بين ملوك العرب واقيالهم وبين الفرس والروم.

4 ـ وفي سجع الكهان والمتنبئين والعرافين والمنجمين.

5 ـ ويوجد ذلك النثر الفني في الأسمار وما يدور فيها من قصص كانوا يستوحونه من الأساطير الدينية القديمة والأحاديث السائرة بين الناس.

6 ـ وفي الأيام إذ بات من المؤكد أنه كان للعرب أيام كثيرة كأيام البسوس، وأيام داحس والغبراء، وحرب الفجار الأولى والثانية والثالثة، وما كان بين الأوس والخزرج من أيام وحروب، وقد كانت تلك الأيام حافلة بالبطولات والوقائع الغريبة والقصص الطريفة مما تحبه النفوس وتصغي إليه الآذان لطرافته، ومن هذا

القبيل ما روته كتب السير والتاريخ كأخبار كليب والمهلهل، ومغامرات امرىء القيس وشجاعات عنترة، وصعلكة عروة بن الورد ورفاقه وغيرها.

عرفنا أن طه حسين رفض كل ما هو موجود من نصوص النثر الجاهلي لنفس الأسباب التي رفض بها الشعر الجاهلي، وأن ذلك كان لمجرد الشك، والشك في مذهب طه حسين ـ حتى فيما يثبت صحته ـ هو نقطة الانطلاق في البحث عن الحقيقة.

والواقع أن قضية الانتحال في الشعر الجاهلي قضية قديمة أشار إليها المفضل الضبي وتناولها بالدراسة ابن سلام الجمحي في طبقاته، وأبو الفرج الأصفهاني في أغانيه مشيرين في دراساتهم إلى أهم أسباب الوضع ودوافعه، وإلى الواضعين فيه كحماد الراوية، وإلى من وضع عليهم الشعر كحسان بن ثابت وعبيد بن الأبرص وبعض القبائل كما نصوا على بعض الأشعار الموضوعة، فأخذت مسألة الوضع في الشعر الجاهلي حجمها الطبيعي، وحقها من الدراسة والتحقيق فبخاصة على يد ابن سلام الجمحي، وكانت تلك الاهتمامات خاصة بالشعر، كما كانت محصورة في نسبة قليلة منه، أما النثر فلم يكن موضع اهتمام عندهم، ولعل ذلك راجع إلى عدم وجود شك في صحته، وتواطأ الناس يومها على ذلك، وأقرهم علماء عصرهم ومن بعدهم من غير اعتراض.

غير أن تلك الثغرة في الأدب العربي القديم هي التي دخل عن طريقها بعض المستشرقين وأخذوا يشككون في صحة الشعر الجاهلي وتوسعوا فيه حتى شمل جل ذلك الأدب وربما كله، متذرعين بأسباب ثبت عند الثقات من المحققين في الأدب فسادها[26]، هذه الدعوى تولى نشرها مستشرقون ثم تبناها طه حسين وادعاها لنفسه باسم التجديد في الأدب العربي، وقال محمد الغمراوي: لقد كتب صاحب الكتاب ـ يعني طه حسين ـ بحثه ليثبت دعوى جديدة ينسبها هو لنفسه، وتنسب في الحقيقة لمرجليوت ـ ملخصها أن الأدب الجاهلي موضوع جله إن لم يكن كله بعد الإسلام[27].

(26) انظر النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي للغمراوي، ومقدمته لشكيب ارسلان، ونقد كتاب الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي.

(27) النقد التحليلي ص 100.

وإذاً ثبت بالدليل فساد دعوى مرجليوت وطه حسين القائلة بأن الأدب الجاهلي موضوع من قبل مدلسين بعد الإسلام، وثبت بالدليل والواقع أيضاً صحة هذا الأدب شعره ونثره، وإن قلّت نصوص المنثور إلى جانب نصوص الموزون على الرغم من أن ما تكلمت به العرب من منثور القول أكثر بكثير مما تكلمت به من موزونه، وذلك لضياع جل الأول وبقاء أكثر الثاني، وهذا لا يطعن في شدة اهتمام العرب بمنثور قولهم، يقول أبو العباس القلقشندي في صبح الأعشى: (واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان: إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة)[28]. وقال أبو عمرو بن العلاء: (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير)[29]. ولفظه (علم) في عبارة أبي عمرو وتشمل ما بقي مما تكلمت به العرب من منثور القول كالخطب والوصايا والحكم والأمثال والأيام وغيرها مما ثبتت صحته لدى أبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي عبيدة والمفضل الضبي والخليل بن أحمد وسيبويه ومحمد بن سلام الجمحي وسواهم من أهل العلم والرواية الذين أجمع الناس على توثيق ما رووه ودونوه، فإن ما دونه أبو عمرو بن العلاء من آداب العرب ولغتهم وأخبارهم ملأ داراً إلى قريب من السقف، وما دونه ابن الاعرابي كان يحمل على عشرة جمال، وأن أبا عمرو الشيباني جمع ودوّن أدب نيف وثمانين قبيلة من سكان البادية إلى غير ذلك. ثم تناقل هذا التراث العربي العظيم العلماء في كتبهم ومؤلفاتهم، منهم اللغوي ومنهم النحوي، ومنهم الإخباري ومنهم البلاغي كل حسب تخصصه، من علماء القرن الثاني والثالث والرابع من الهجرة، على أنه أثر جاهلي صحيح يحكي واقعهم ويصور حياتهم.

وبعد كل الذي أسلفنا ذكره من حديث النثر الفني لعصر ما قبل الإسلام، وما عرضنا له من الآراء والمذاهب على اختلاف مشاربها في النفي والإثبات فإننا

---

(28) ص 210 /211 ج 1.

(29) ص 25 القسم الأول من طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي.

نرى ما قد رآه الثقات والمنصفون ممن درسوا أدب لغة الضاد، وحققوا نصوصه، وصححوا تاريخه ووثقوا نسبه كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وابن سلام الجمحي وسواهم، ولسنا مع المشككين ولا المغرضين الذين استهدفوا بشكهم الطعن على أصل الأدب العربي، ومنه التشكيك في لغة القرآن الذي نزل بنفس اللغة التي جاء بها ذلك الأدب، ولهذا تعلق الناس بأدب تلك الفترة ونصوصه ولغته حق التعلق فكانت لهم به غاية الاعتناء، قال الجاحظ: (اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومتشاكلاً في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد، ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع[30].

وفي رأينا أنه لم يكن عندهم نثر فني وآخر ليس كذلك كما عرف من بعد، وإنما كان لهم نثر أدبي ـ أو فني ـ واحد يتخاطبون به ويتراسلون، ويستخدمونه في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم وحاجاتهم، وكله في منتهى الفصاحة والبلاغة والجمال والتأثير والتشويق، أما القول بأن هذا نثر فني، وذلك نثر عادي فهذا من اختراعات المولدين حين صارت الكتابة تكلفاً وتصنعاً، واللغة تعلماً، لأن النثر لم يكن يكلفهم شيئاً من العناء والتعب في استحضار المعاني، وانتقاء الألفاظ، والعناية بصياغة الأسلوب الرائق، كما كان بالنسبة لمن كان بعدهم من العصور كما تعرف الكتاب على طريقة كتابة النثر الفني وما يعانونه من مصاعب أثناء ذلك، قال الجاحظ: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناه ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع، أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً.. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر.... من

(30) البيان والتبيين ص 7 ج 2 ـ تحقيق عبد السلام هارون ط 1 الخانجي.

غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب. وإن شيئاً هذا الذي في أيدينا جزء منه، لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا الله[31].

مراجع البحث

1 ـ صبح الأعشى ج 1 ـ أبو العباس القلقشندي ـ ط / المؤسسة المصرية العامة.
2 ـ طبقات فحول الشعراء ـ القسم الأول ـ محمد بن سلام الجمحي ـ قراءة وشرح محمود شاكر مطبعة المدني/ القاهرة.
3 ـ فقه اللغة وسر العربية ـ أبو منصور الثعالبي ـ ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
4 ـ البيان والتبيين ـ أبو عثمان الجاحظ ـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ نشر مؤسسة الخانجي ـ القاهرة.
5 ـ أيام العرب في الجاهلية ـ مجموعة من المؤلفين ـ مطبعة الحلبي بمصر.
6 ـ تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة د. النجار ط / دار المعارف بمصر.
7 ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ـ أنيس المقدسي ـ ط / دار العلم بيروت.
9 ـ الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ـ د. عبد الحميد المسلوت/ منشورات الجامعة الليبية.
10 ـ العصر الجاهلي ـ د. شوقي ضيف ط / دار المعارف بمصر.
11 ـ من حديث الشعر والنثر ـ د. طه حسين/ ط / دار المعارف بمصر.
12 ـ مصادر الشعر الجاهلي ـ د. ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر.
13 ـ النثر الفني ج 1 ـ د. زكي مبارك ـ ط دار الكتب المصرية ـ 1352 هـ.
14 ـ النقد التحليلي لكتاب (في الأدب الجاهلي) محمد الغمراوي ـ المطبعة السلفية 1347 هـ.
15 ـ نقد كتاب الشعر الجاهلي ـ محمد فريد وجدي ـ مطبعة دائرة معارف القرن العشرين سنة 1926 م.

(31) المرجع السابق ص 28 /3.